مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 12، العدد 48 (خريف 2001)، ص 117

في الذاكرة

سميح شبيب*

فيصل الحسيني سياسياً ومناضلاً:
سيرة موجزة

ولد فيصل الحسيني في بغداد يوم السابع عشر من تموز/ يوليو 1940، وتوفي في مدينة الكويت يوم الحادي والثلاثين من أيار/ مايو 2001. ثمة مفارقات وطنية وشخصية في التاريخين السابقين.

والده عبد القادر، فلسطين إلى بغداد، ليكون إلى جوار مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، الذي اختار بغداد مقراً له، إلى جانب ضباط قوميين يعتزمون مقاومة الانتداب الإنكليزي. وقام المفتي باستدعاء قادة قواته بعد ثورة 1936–1939. وقبل عام واحد من قيام ثورة رشيد عالي الكيلاني في بغداد، ولد فيصل في حمأة الإعداد للثورة، بمشاركة الفلسطينيين الذين أملوا من ورائها دحر الانتداب البريطاني في بغداد؛ وهو ما سيكون له أثر في فلسطين.

وكما في ولادته من مفارقات، كذلك في وفاته. سافر فيصل إلى الكويت للمشاركة في مؤتمر ضد التطبيع، كي يشرح وجهة النظر الفلسطينية، ويحاول رأب صدع عميق اعترى العلاقة الفلسطينية – الكويتية غداة حرب الخليج، آملاً من وراء ذلك تعزيز الصمود العربي الفلسطيني عامة، وفي القدس خاصة.

ما بين الولادة والموت محطات كثيرة، ارتبطت جميعها بالشأن الوطني العام.

* كاتب فلسطيني من رام الله.

كانت القدس هي البداية والنهاية عند فيصل، سكنته بسحرها ودلالاتها وسكانها وعبق تاريخها وآمال مستقبلها إلى درجة يمكن معها طرح تساؤل عريض:

هل كان في الإمكان تصور أن تحافظ القدس الشرقية المحتلة على الأغلبية الفلسطينية فيها بعد مرور ثلاثة وثلاثين عاماً على احتلالها. على الرغم من إجراءات الطرد والقمع وسحب الهويات وهدم المنازل والاعتقال والتهويد والاستيطان والإغراءات التي وصلت إلى أرقام شبه خيالية، لولا عدة عوامل، في مقدمها فيصل الحسيني الذي خاض معركة كل أرض تصادر، وكل بيت يهدم أو يسيطر عليه أو يُشترى عبر اليهود أو السماسرة بمبالغ خيالية، وكل هوية تسحب، وكل اعتداء يشن، فيبادر إلى تنظيم المسيرات والتظاهرات والاعتصامات واللقاءات الصحافية والسياسية بصورة شبه يومية، ويلاحق كل قضية صغيرة أو كبيرة، حيث ساهم بقسط أساسي في أن تبقى القدس عربية، على الرغم من ظلام الاحتلال المخيم عليها.

يستذكر أكرم هنية رفيق دربه زمن الانتفاضة الفلسطينية الأولى وما تلاها، دور فيصل في مركز القدس، واصفاً إياه بأنه مساهمة أساسية، تمثلت في سعيه الذي لا يتوقف أو يهدأ لحظة لتحويل معركة القدس من مجرد شعار وطني عام إلى برنامج نضالي متكامل يهدف، إلى جانب الحفاظ على فلسطينية وعروبة القدس تحت الاحتلال، إلى تطوير هذه الهوية بتعزيز مكانتها في الوعي الفلسطيني والعربي والإسلامي والدولي، وبإيجاد ورعاية وتنمية المقومات والأطر المادية والمعنوية اللازمة كي تصبح هذه الهوية أكبر من الشعارات، وأعمق من الرموز.

وعبر دفق لا يتقطع من المبادرات والأفكار، وعبر متابعة مثابرة لكمّ هائل من ملفات القضايا والتفصيلات الصغيرة، كان يقود معركة بناء مادي وسياسي ومعنوي ونفسي كي تتجسد في المدينة المقدسة ركائز ومؤسسات عاصمة الدولة المستقلة.

لعل من المفيد قبل قراءة مواقفه السياسية والثقافية، العودة قليلاً إلى الجذور، ذلك بأن ما قام به فيصل جاء استكمالاً لمراحل تاريخية ممتدة. كان جده موسى كاظم الحسيني، الذي ولد في القدس سنة 1853 وتولى في سنة 1918 رئاسة بلدية القدس، وقاد تظاهرات سنة 1920 التي طالبت بانضمام فلسطين إلى سورية وحاربت الهجرة اليهودية. وبسبب ذلك أقاله الحاكم البريطاني من منصبه، وانتخبه المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث سنة 1920 رئيساً للجنة التنفيذية العربية وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته في سنة 1934 متأثراً بإصابة ألحقها به جنود الاحتلال البريطاني عندما يقود تظاهرات سنة 1933.

ومع وفاة موسى كاظم الحسيني حمل ابنه عبد القادر الحسيني راية النضال في مواجهة الانتداب البريطاني وأنشطة الحركة الصهيونية وقواها العسكرية، التي كانت تقوم بشن غارات متعاقبة ضد الفلسطينيين، وفي زمنه تم نقل الحركة الوطنية الفلسطينية إلى حركة كفاحية مسلحة

ضد البريطانيين والعصابات الصهيونية. ولد عبد القادر في إستنبول سنة 1908، ودرس المرحلة الثانوية في القاهرة سنة 1925، ثم التحق بالجامعة الأميركية وأنشأ فيها أول رابطة للطلبة الفلسطينيين، لكنه أُبعد عنها بسبب مواقفه الوطنية، فعاد إلى القدس سنة 1933 حيث تولى سكرتارية جمعية الشباب المسلم وبدأ بتشكيل فرق المجاهدين الوطنيين التي لجأت إلى الجبال وشاركت في الثورة الفلسطينية سنة 1936. أُصيب في أثناء ثورة 1936، وألقت القوات البريطانية القبض عليه، لكنه تمكن من الفرار إلى دمشق حيث عولج هناك. تدرب على استعمال المتفجرات في بغداد، وشارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة 1941. واستمرت حياة عبد القادر الحسيني الحافلة بالجهاد الوطني بين النفي والاعتقال والنضال ضد البريطانيين والعصابات اليهودية إلى أن استشهد في معركة القسطل ضد اليهود سنة 1948.

ورث فيصل مجد العائلة الحسينية، وموقعها في مدينة القدس، لكن لا شيئ في سجله الشخصي يدل على أنه ارتكز على هذا المجد لتكوين ملامح شخصيته الكفاحية والسياسية.

اعتمد فيصل على مقوماته الشخصية، وبذل جهوداً خاصة، راسماً إطار شخصيته المتميزة بالنزاهة والتصميم والشجاعة والدماثة والصدق والتواضع. كان معززاً بإيمان ثابت لا يلين، وببصيرة نافذة، وبروح الفرسان، بما تعنيه من كبرياء.

تطوع فيصل في الجيش الصمري سنة 1956، وشارك في قوات المقاومة الشعبية للتصدي للعدوان الثلاثي على مصر. وفي سنة 1957، انضم إلى حركة القوميين العرب. وبعد ذلك بعام واحد، أنهى دراسته الثانوية في القاهرة، وسافر في السنة ذاتها إلى بغداد للالتحاق بكلية العلوم. وعقب اندلاع الصراع بين حركة القوميين العرب والحركة الشيوعية في العراق سنة 1959، غادر فيصل العراق إلى مصر، والتحق بكلية العلوم في القاهرة.

في سنة 1961، انضم فيصل إلى رابطة طلبة فلسطين في القاهرة، واشترك في تأسيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين. وفي سنة 1963، باشر تدريبات عسكرية استعداداً للانخراط في الكفاح المسلح، عبر دورة تدريبية خاصة في مصر، ضمن تنظيم "شباب الثأر".

ومع إنشاء منظمة التحرير في سنة 1964، ثم إنشاء جيش التحرير الفلسطيني، اتخذت حركة القوميين العرب قراراً بفوز مجموعة من شبانها للانضمام إلى الكليات العسكرية العربية التي فتحت أبوابها أمام الشباب الفلسطيني للانخراك في الدراسة العسكرية الأكاديمية كي يكونوا الرعيل الأول من الضباط الشباب في جيش التحرير الفلسطيني.

وكانت الدول العربية – مصر والعراق وسورية – قد وافقت على فرز أعداد كثيرة من الضباط الفلسطينيين الذين كانوا يعملون في صفوف جيوشها، ليقودوا تشكيلات جيش التحرير الفلسطيني.

وكان فيصل الحسيني من أوائل الشباب الذين التحقوا بالأكاديمية العسكرية السورية في حلب للتدريب العسكري.

يستذكر شفيق الحوت تلك المرحلة، ويقول: "عرفت فيصل العام 1966 عندما التحق بمكتب منظمة التحرير الفلسطينية ببيروت كمساعد ملحق عسكري برتبة ملازم أول، وكان الملحق هو العقيد محمد الشاعر، رحم الله الاثنين."

وفي إثر هزيمة 1967 اختفى فيصل، والتحق بصفوف الفدائيين في حركة فتح بعد أن قرر العودة إلى القدس بأي شكل للنضال من أجل تحريرها من الداخل.

تسلل فيصل عبر نهر الأردن قادماً إلى القدس، وبدأ يعمل مع مختلف التنظيمات والقوى الفلسطينية لمقاومة الاحتلال. اعتقلته سلطات الاحتلال بتهمة تشكيل مجموعات عسكرية وحيازة أسلحة، وحكم عليه بالسجن مدة عام، وكان ذلك في الخامس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1967.

وعقب إطلاقه، خاض مواجهات قانونية مع سلطات الاحتلال من أجل الحصول على هوية إقامة، واستمرت تلك المواجهات عشرة أعوام كاملة. وعلى الرغم من المضايقات الإسرائيلية الشديدة، قرر فيصل البقاء في القدس، ممارساً نشاطه السياسي عبر مجالات مدنية متعددة، كان منها الزراعة، والعيادات الطبية، وكموظف فندق، وكبائع متجول، وهو ما أتاح له الحركة والتنقل عبر المدن الفلسطينية من الشمال إلى الجنوب والاطلاع على أحوال الناس وأوضاعهم. تنبه فيصل لمخاطر الاستيطان في الضفة الغربية منذ بداياته، محذراً ومنبهاً من تهويد مدينة القدس؛ وكان همه الأول بقاء الفلسطينيين في مدينتهم. قال في إحدى مقابلاته: "إن العملية الاستيطانية منذ البداية تسير بشكل منظم ومبرمج من الناحية الإسرائيلية، وهم يتبعون ثلاث سياسات أساسية: العزلة وسياسة التهجير وسياسة الإحلال. وسياسة العزلة مكونة من محاولة عزل القدس عن بقية الشعب الفلسطيني من خلال عمليات التفتيش ومنع الفلسطينيين من المرور في المدينة. فمدينة القدس بنيت لتكون عاصمة للدولة الفلسطينية وللشعب الفلسطيني وبالتالي كانت تقدم خدماتها لأكثر من مليون ونصف المليون فلسطيني في البدايات، والآن يفرضون على هذه المدينة أن تقدم خدماتها لأقل من 170 ألف فلسطيني ولكم أن تتصوروا التأثير السلبي لذلك على الاقتصاد في هذه المدينة والخدمات التي فيها؟"

ومن هنا كانت رؤية فيصل الحسيني، في أحاديثه وتحليلاته، تنبه وتشير إلى المخاطر، وتفضي كلماته إلى معاني وقيمة التحليل والرؤية المستقبلية لمدينة القدس. وعندما كان يتحدث كانت تظهر علامات الحزن على وجهه؛ فهو إنسان يكشف عن محتوى يفيض محبة وسماحة، وشخصيته تتسامى مع حزنها على قدسه.

أسس فيصل الحسيني بيت الشرق، الذي أصبح رمزاً للعاصمة الفلسطينية المحتلة. ولم يكن هذا البيت مجرد رمز، على الرغم من أهميته، وإنما أصبح مؤسسة بكل ما يحمله العمل المؤسسي من معنى ودلالات، وخصوصاً في ظل العمل المؤسسي الفلسطيني. فبات بيت الشرق "حكومة"، معتمداً على هيكلية قادرة على أن تؤدي المهمات المعقدة في ظل صراع مرير مع عدو متمرس أخذ بناصية العلم والمعرفة. وهكذا قام بيت الشرق كمؤسسة وطنية فلسطينية، كان وما زال لها دور الريادة في جمع وتوثيق كل ما يحتاج إليه نضالنا الوطني وصراعنا المفتوح مع عدو متغطرس يمتلك كل أدوات التزوير التي لم تصمد أمام الحقائق والخرائط والوثائق التي جمعتها مؤسسة بيت الشرق من خلال طواقم عمل مؤهلة.

ويتجاوز ما حققه الحسيني في هذا الأمر كل ذلك، عندما نجح في الإبقاء على هذا الصرح حياً يرفرف عليه العلم الفلسطيني وسط العاصمة الفلسطينية المحتلة، على الرغم من كل جهود الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة في سبيل إغلاقه، إلى أن أتت حكومة شارون وختمته بالشمع الأحمر في العاشر من آب/ أغسطس 2001، بعد رحيل القائد المناضل.

لكل ذلك كان الفلسطينيون ينظرون إلى فيصل الحسيني على أنه رئيس بلدية القدس الشرقية الفعلي، حيث كان يترأس بيت الشرق، المقر السياسي الرئيسي للفلسطينيين، والذي يمثل الوجود غير الرسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية في المدينة.

أدى فيصل دوراً مهماً وبارزاً في المفاوضات الفلسطينية – الإسرائيلية، منذ فترات مبكرة، وسابقة لمؤتمر مدريد.

كان محاوراً متحضراً وحجة عاقلة. وفي الفترة السابقة لمفاوضات أوسلو السرية حاول وزير الخارجية الأميركي في ذلك الحين، جيمس بيكر، إقناع فيصل الحسيني والدكتورة حنان عشراوي وغيرهما بإدارة ظهورهم للقيادة الفلسطينية في تونس، لكن الحسيني وعشراوي خيبا ظنه. وعندما تعثرت مفاوضات واشنطن العلنية، استدعى الرئيس ياسر عرفات الوفد الفلسطيني، بمن فيه الحسيني وعشراوي، إلى تونس ليثبت للأميركيين، وللإسرائيليين طبعاً، أن الصف الفلسطيني موحد.

ما زلت أذكر، شخصياً، خطى فيصل الواثقة، وابتسامته البراقة، عندما دخل قاعة المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر وإلى جانبه حنان عشراوي. أراد الرئيس ياسر عرفات أن يجعل من حضوره مفاجأة. وقف الجميع احتراماً لحضوره وقامته العالية. لم يكن هو من حضر، وإنما الأقصى والصخرة وكنيسة القيامة والمهد، وعبق التاريخ المجيد.

حرص فيصل، منذ بدايات التحرك الأميركي غداة حرب الخليج لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط سياسياً، وإطلاق مسيرة التسوية السياسية للقضية الفلسطينية، على إظهار تمترسه خلف

القيادة الفلسطينية، وعنوانها الأبرز منظمة التحرير الفلسطينية. وقد أظهر هذا الجانب من خلال حرصه على تلقي التعليمات من الرئيس عرفات مباشرة، وكان واضحاً مع الخارجية الأميركية ووزيرها آنذاك جيمس بيكر. ومثلت تلك المعركة أشد المعارك التي خاضها فيصل ضراوة بهدف تثبيت الرقم الفلسطيني الفاعل في الحلبة السياسية الدولية.

أدى دوره الفلسطيني كزعيم بارز على أكمل وجه، من دون أن ينازع أحداً النفوذ السياسي أو التنظيمي. وغداة توقيع اتفاق أوسلو، ركز فيصل جل عمله على مسألة القدس التي اعتبرها جوهر القضية الفلسطينية، وأصبح مسؤولاً في سنة 1995 عن ملف القدس في منظمة التحرير، واتخذ من بيت الشرق مقراً له. وفي سنة 1996، انتخب عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، لكن مناصبه السياسية والإدارية لم تحل لحظة واحدة دون حميمية اهتمامه بأهل القدس وقضاياها.

رحل فيصل الحسيني فجأة، وكان لرحيله وقع عميق مؤلم في نفوس الفلسطينيين كافة. هبوا جميعاً في قراهم ومدنهم وبلداتهم لفتح بيوت العزاء. وفي رام الله والقدس وما حولهما، تجمع الفلسطينيون على مقربة من مهبط الطائرة التي ستقله من عمان إلى رام الله ومنها إلى القدس لدفنه.

ما حدث يوم الجمعة في الأول من حزيران/ يونيو 2001 في رام الله والقدس وسائر المدن الفلسطينية دل بوضوح على عمق حب الشعب الفلسطيني، بمختلف فئاته واتجاهاته السياسية، لأمير القدس، فيصل الحسيني.

على الواجهة الرئيسية للمسجد الأقصى علق الفلسطينيون علماً فلسطينياً ضخماً وإلى جانبه صورة كبيرة للشهيد الحسيني يلوح بيده قبل أن يتمكن عدد من الشبان من اعتلاء سطح المسجد وهم يلوحون بأعلام فلسطينية أُخرى ورايات.

وفي الوقت ذاته، كان ملثمون آخرون يعتلون قبة الصخرة المشرفة لتثبيت علم فلسطيني ضخم على إحدى واجهاتها إلى جانب أعلام صغيرة ورايات. وتم تعليق أمثالها على الكثير من المنازل والمحال التجارية والمباني في المدينة، فضلاً عن السيارات التي كان الشبان فيها يلوحون بالأعلام التي عادة ما كانت تعمل الشرطة الإسرائيلية جاهدة من أجل مصادرتها واعتقال حامليها.

يتندر الفلسطينيون بأنه طوال يوم التشييع لم يدخل القدس الشرقية من الإسرائيليين سوى أوري أفنيري وموشيه عميراف اللذين شاركا في تشييع جثمان الحسيني. أمّا أرجاء المدينة فكانت خالية من الإسرائيليين، سواء أكانوا جنوداً أم أفراد شرطة أم مستوطنين. لقد كانت القدس في جنازة الحسيني محررة تماماً كما تمنى في حياته.

قال أحمد قريع (أبو علاء)، رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني، في كلمته التأبينية للحسيني:

"نقول من القدس التي حررتها جنازة فيصل.. ليس فينا وليس منا وليس معنا من يبخل بدمه أو بماله من أجل القدس."

ظهر جلياً أن الراحل الكبير جسّد الارتباط الذي لا يهتز بين الرمز والقدس.. بين الشعب الذي اغرورقت أعين أبنائه بالدموع حزناً وهم يودعون هذا الرمز الكبير وبين القدس التي احتضنته ترابها في رحاب الحرم القدسي الشريف.

قال صديقه مهدي عبد الهادي، والدموع تنهمر من عينيه، في إبان التشييع: "كان يقول لنا دوماً إن يوماً سيأتي تنحب فيه المدينة قادتها، ولكن لن يأتي اليوم الذي ينحب فيه القادة مدينتهم.. هذا هو حالنا اليوم.. لقد فقدنا قائداً في وقت نحن أحوج ما فيه إلى هذا القائد."

وقف فيصل الحسيني، قبل أسبوع من استشهاده، في نادي القدس في حفل تكريمي لبعض المعلمات والمعلمين، وخطب في الحفل شارحاً سياسة أريئيل شارون، رئيس الحكومة الإسرائيلية، فشدد على عروبة القدس، وتطرق إلى الخسائر الجسيمة التي تكبدها الشعب الفلسطيني في انتفاضة الأقصى ولا يزال، فقال ضمن ما قال: "لا تجزعوا من عظم خسائرنا فهذا قدرنا وليس أمامنا إلاّ الصبر والنصال."

شارك الحسيني، طوال حياته، في عدد لا يحصى من الاشتباكات مع قوات الاحتلال الإسرائيلي، دفاعاً عن فلسطين وعروبة القدس وإسلامية المسجد الأقصى. وكان آخر هذه الاشتباكات مسيرة انطلقت من القدس إلى حاجز ضاحية البريد العسكري الإسرائيلي (شمال القدس). يستذكر مرافقه الخاص ناصر قوس تلك الحادثة بقوله: "أطلق علينا جنود الاحتلال قنابل الغاز المسيل للدموع، ومن المؤكد أنه كان لهذه الغازات تأثيرها على صحته، فقد استنشق كمية كبيرة من الغاز.. وجهه كان أحمر، وتنفسه اختلف، علماً أنه كان يعاني من حساسية في الصدر.. لقد اختلف كثيراً بعد هذه الحادثة."

وفي تلخيص هو الأكثر شمولاً لحياة هذا الشهيد، قال صائب عريقات: "فيصل لم يكن يهتم على الإطلاق بالألقاب ولا المسميات ولا المقاعد ولا مكان الجلوس.. فيصل كان أكبر منها جميعاً.. كان همه فلسطين والقدس. وآخر ما كان يفكر فيه هو فيصل الحسيني ومكانة فيصل والألقاب التي تعطى له، وهذا ما ميزه عنا جميعاً دون استثناء."

رحل فيصل، لكن بصماته الواضحة في القدس باقية وحية. ليس ما تركه ذكرى، بقدر ما هو واقع حي ونابض. تمسك بالأرض والأهل والأحبة، وكان يرى أن بقاء العرب في القدس سيُبقي على عروبتها؛ وهذا ما بذل من أجله الجهود كافة، وهذا ما أثمرته جهوده. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx